الفصل الثامن بعد المئة

أصحاب المـــال

وصاحب المال عند أهل الجاهلية ، من له تجارة وجمع منها مالاً ، أو من له زرع ونخيل ، جاء اليه بربح طيب ، أو من له إبل ، والإبل هي (المال) عند العرب ، ومقياس ثراء الانسان ، لأنهم لا يعرفون مالاً غيرها ، أو من له حرفة رائجة ، وذلك بين أهل المدن والقرى ، حيث يستطيـع صاحبها الحصول منها على ربح طيب اذا عرف كيف يستغل مواهبه في اختيار حرفته وفي تشغيل الأيدي العاملة لزيادة الانتاج .

وقد أشار أهل الأخبار الى رجال جاهليين ومخضرمين كان يملك كـــل واحد منهم عشرات الألوف من الدراهم ، أي النقود ، عدا الإبل والمزارع والأملاك : من هؤلاء : (عبدالله بن جدعان) . ويظهر انه كان واسع الثراء ، لم يبلـــغ أحد مبلغه في كثرة ماله بمكة ، حتى ذكر انه كان يأكل بصحاف من ذهب ، ويشرب بآنية من فضة ، وبكؤوس من البلور ، وانه كان قد امتلك قياناً ليغنين له . وللجرادتين ، وهما قينتان من قيانه ، شهـرة واسعة في كتب الأدب ، تغنيان له ولمن يحضر مجلس شرابه ليلاً ، وكان بيته داراً للضيفان .

وكان استعمال الأغنياء لآنية من الفضة والذهب في أكلهم وشربهم معروفاً بمكة. وقد كان ذلك يترك أثراً في نفوس الفقراء الذين لا يملكون قوتاً لهم . ولهـــذا السبب نهي عن استعمالها في الإسلام ، ونهي أيضاً عن استعمال ثيـــاب الحرير . وقد كانت ثيـــاب الحرير والملابس المقصبة بالذهب ، وحلل الديباج من ألبسة

الأغنياء ، الذين كانوا يعتنون بملابسهم وينفقون في شرائها مالاً ، وهي تستورد من الخارج من اليمن ومن بلاد الشأم والعراق .

ويفهم من القرآن الكريم أن بين الجاهليين من كان يكتنز الذهب والفضة ، ولا يعطي ممـا جمعه للفقراء والمحوجين شيئاً . وقد بشر هؤلاء بعذاب أليم ، لاكتنازهم المال وعـدم إخراج شيء منـه من حق مفروض عليهم ، لينفق في موضعه ومكانه الذي وضعه الله له[1] . وأشار الى أناس حبب اليهم جمع القناطير المقنطرة من الذهب والفضة[2] . وكان أغنياؤهم يعيشون عيشة مترفـة ، يحتسون الماء بآنية من ذهب ، حتى قيل لأحدهم (حاسي الذهب) و (شارب الذهب)[3]. ويستخدمون الأثاث الفاخر ، والمذهبات ، وهي الأشياء المطلية بالذهب ، والبرد المذهبة والملابس المذهبة ، والحلي المصوغة من الذهب ، على حين يعيش بعضهم عيشة كفاف ، وبعض منهم عيشة فقير معدم .

وقد عرف (عثمان بن عمرو بن كعب) ، وهو من (بني تيم بـن مرة) بـ (شارب الذهب) ، لغناه وكثرة ماله ، حتى كان يشرب بآنية من ذهب، وقد عدّ في أجواد قريش[4] .

ويظهر من سورة « تبت يدا أبـي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب»[5] أن (أبا لهب) كان رجلاً ثرياً كسب مالاً وذرية ذكوراً . وهو عم من أعمام النبي ، واسمه (عبد العُزى) ، وكان يرى نفسه لكثرة ماله وولده ، أنه من رجال قريش وسادتهم ، فلا يليق به اتباع ابن أخيه ، وهو أصغر منه سناً وأقل منه مالاً . يقال إنه قال للنبي : « ماذا أعطى يا محمد إن آمنت بك ؟ قال : كما يعطى المسلمون ! فقال : مالي عليهم فضل ! قـال : وأي شيء تبتغي : قال : تباً لهذا من دين . تباً أن أكون أنا وهؤلاء سواء »[6] .

وقد تحدثت عن (أبـي سفيان) في مواضع من هذا الكتاب ، وكان تاجراً

---

١ سورة التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٣٤ .
٢ سورة آل عمران ، الرقم ٣ ، الاية ١٤ .
٣ المحبر (١٣٧) .
٤ المحبر (١٣٧) .
٥ سورة تبت ، الرقم ١١١ ، الآية ١ وما بعدها .
٦ تفسير الطبري (٣٠/٢١٧) .

يجهّز التجار بماله وأموال قريش الى الشأم وغيرها من أرض العجم، وكان يخرج أحياناً بنفسه[1] . وقد عهدت اليه قريش بقيادة قوافلها الى الشأم ، وبسبب قيادته قافلتها الى الشأم وقعت معركة بدر . ويظهر انه كان يدفع أمواله الى كبار تجار قريش ممن كانوا يتاجرون مع الشأم والعراق ، للاتجار بها ، فإذا عادوا يصيب من أرباحها .

ويتبين من خبر وقوع ابنه (عمرو) أسيراً يوم بدر ، ومن امتناعه من تخليصه من أسره بتقديم فدية عنه ، ومن قوله لمن ألح عليه بإفدائه : « أيجمع عليّ دمي ومالي ! قتلوا حنظلة وأفدي عمراً ، دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم » ، انه كان شحيحاً ، حمله شحه على تفضيل المال على ابنه . حتى حمله شحه هذا على مخالفة دين قريش،وعرفهم في عهدها ألا تعترض لأحد حاجاً أو معتمراً إلا بخير. فلما جاء (سعد بن النعمان بن أكال) ، وكان شيخاً مسلماً كبيراً الى مكة معتمراً ، عدا عليه (أبو سفيان) ، فحبسه بمكة بابنه (عمرو) ، مما حمل الرسول على فك أسر ابنه بـ (سعد بن النعمان بن أكال)[2] .

وكان يتاجر بالفضة وبالأدم ، والأدم من تجارة قريش المهمة . ويظهر انه كان يشتري الأدم من الطائف ومن اليمن ، ثم ينقله الى بلاد الشأم . وقد أشير الى أدم قريش ، وهو أديم عرف في الأسواق بجودته وبنفاسته .

وكان (العباس بن عبد المطلب) من أثرياء قريش . كانت له ثروة واسعة من نقود ومن ذهب وفضة . وقد استغل ماله بالتجارة وبإقراضه بالربا ، قيل عنه إنه « كان ذا مال كثير متفرّق في قومه »[3] . كان يقرضهم ويسلفهم ويشاركهم في تجارتهم . ولما انتهى الى المدينة قال الرسول له : « يا عبّاس افدِ نفسك وابني أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث ، وحليفك عروة ابن عمرو بن جحدم ، أخا بني الحارث بن فهر . فإنك ذو مال . فقال : يا رسول الله ؛ إني كنت مسلماً ، ولكن القوم استكرهوني ، فقال : الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ما تذكر حقاً فالله يجزيك به . فأما ظاهر أمرك فقد كان

---

١ الاستيعاب (٤/٨٦) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٢/١٧٢) ، (رقم ٤٠٤٦)
٢ الطبري (٢/٤٦٦ وما بعدها) .
٣ الطبري (٢/٤٦١) .

علينا ، فافد نفسك – وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب – فقال العباس : يا رسول الله ، احسبها لي في فدائي ، قال: لا ؛ ذاك شيء أعطاناه الله عزّ وجلّ منك ، قال : فإنه ليس لي مال . قال: فأين المال الذي وضعته بمكة حيث خرجت من عند أم الفضل بنت الحارث ، ليس معكما أحد . ثم قلت لها : إن أصبت في سفري هذا فللفضل كذا وكذا ، ولعبدالله كذا وكذا ، ولقثم كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا ! قال : والذي بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيري وغيرها ، وإني لأعلم أنك رسول الله ، ففدى العباس نفسه وابني أخيه وحليفه »[1] . وكان ذلك عند وقوعه في الأسر ببدر[2] .

وكانت أم العباس غنية على ما يظهر ، ذكر انه ضاع وهو صغير ، فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت الحرير ، فوجدته فكست البيت الحرير ، فهي أول من كساه ذلك[3] . وكان له مال في الطائف ، فإذا كان الموسم جيء اليه بالزبيب لينتبذه للحجاج ، فقد كان المتولي لأمر السقاية بمكة . وذكر انه كان يملك (مكوكاً) ، مصوغاً من فضة مموهاً بالذهب يشرب به[4] .

وقد نجح بعضهم في الزراعة نجاحاً باهراً ، وأظهر مقدرة في إحياء الأرض الموات . ومن هؤلاء : (عبدالله بن عامر بن كريز) . وكان صغيراً في أيام النبي ، وولي (البصرة) في أيام (عثمان) . وكان ابن خال (عثمان) . وله (النباج) الذي يقال له نباج ابن عامر ، وله (الجحفة) ، وله بستان ابن عامر بنخلة على ليلة من مكة ، وله أرضون أخرى ، تمكن من معالجتها ومن إظهار الماء فيها ، حتى جمع ثروة طائلة من الزراعة[5] .

ونجح (عبدالله بن عمرو بن العاص) في الزراعة أيضاً ، فقد كان له مال بالطائف على ثلاثة أميال من (وج) ، هو كرم فاخر موصوف ، « كان يعرش على ألف ألف خشبة شراء كل خشبة درهم » . وقد كان يحصل منه على أكوام كبيرة من الزبيب[6] .

---

١ الطبري (٢/٤٦٦) .
٢ الاصابة (٢/٢٦٣) ، (رقم ٤٥٠٧) .
٣ الاصابة (٢/٢٦٣) ، (رقم ٤٥٠٧) ، الاستيعاب (٣/٩٤) ، (حاشية على الاصابة)
٤ تاج العروس (٧/١٧٩) ، (مك) .
٥ كتاب نسب قريش (١٤٨) ، الاستيعاب (٢/٢٥١) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ تاج العروس (٥/٢٤٣) ، (وهط) .

وعرف (آل مخزوم) بالثراء في الجاهلية وفي الاسلام . مرّ (عثمان بن عفان) بمجلس لبني مخزوم ، فسلم عليهم ، ثم قال : « إنه ليعجبني ما أرى من جمالكم ونعمة الله عليكم » . « وزعموا أن قوماً قعدوا يذكرون الأغنياء من قريش، فقال أحدهم : (المغيرة بن عبد الرحمن) . فقال له القوم : « وهل لمغيرة من مال؟» فقال الرجل : أليس له أربع بنات وأربع أخوات ؟ وكان المغيرة يقول : لا أزوج كفؤاً إلا بألف دينار ! فكان إذا خطب اليه الكفؤ ، قال له : قد علمت قولي ؟ فيقول له الخاطب : قد علمتُ وقد أحضرت المالَ ؟ فيزوجه ويقبض المال منه ؛ ثم يقول له : أختم عليه بخاتمك ، فإذا أدخل زوجته ، بعدما يجهزها بما يصلحها ، ويخدمه خادمين ، ويدخل بيتها نفقة سنة دفع اليها صداقها مختوماً بخاتم زوجها ، ثم يقول لها : هذا مالك ، وما جهزناك به صلة منّا لك »[1]. وهي قصة مهما قيل فيها فإنها تشير الى ثراء وغنى آل مخزوم .

وعكرمة بن أبي جهل من أغنياء قريش كذلك ، ولما ندب (أبو بكر) الناس لغزو الروم ، خرج معهم غازياً ، فبصر (أبوبكر) بخباء عظيم ، حوله ترابط ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة ، فجاء اليه ، فإذا خباء (عكرمة) ، فعرض أبو بكر عليه المعونة ، فقال : « أنا غني عنها ، معي ألفا دينار ، فاصرف معونتك الى غيري »[2] .

وكان (الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس) من تجار مكة ، وكان يخرج بتجارته الى الخارج ، فيذهب الى الحيرة ، للاتجار بسوقها . ومرّ (الحكم) بحاتم الطائي فسأله الجوار في أرض طيء حتى يصل الى (الحيرة) فأجاره ونحر له وأوصله الى الحيرة .

ومن أغنياء الطائف (مسعود بن معتب الثقفي) ، قيل انه كان له مال عظيم. وانه أحد من قيل فيه انه المراد من الآية : « على رجل من القريتين عظيم » . وكانت له مزارع بها أشجار كروم وفواكه ، وله عبيد ، وقصر ضخم[3] .

ومن رجال الطائف الأغنياء (مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي) ، كان غنياً

---

١ كتاب نسب قريش (٣٠٨ وما بعدها) .
٢ كتاب نسب قريش (٣١١) .
٣ تاج العروس (٦/١٨٤) ، (طوف) .

يرابي بماله . ولإخوته ربا عند (بني المغيرة بن عبدالله) ، فلما أسلموا طالبوهم، فقالوا : ما نعطي الربا في الاسلام ، واختصموا الى (عتاب بن أسيد) ، فكتب به الى النبي ، فنزلت : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين »[1] .

ولا توجد لدينا قوائم بمقدار ما كان يملكه الأغنياء في الجاهلية من مال ، وأقصد بالمال هنا : النقود ، من دنانير ودراهم ، لعدم وصول موارد مدوّنة فيها مثل هذه القوائم ، إلا أن الموارد الاسلامية قد تطرقت الى ذكر ما قدمه بعض من أسلم من النقود في سبيل الله،وبعض ما قدمه المشركون من أجل الدفاع عن مصالحهم ، كما أشارت الى أمور أخرى وردت فيها أعداد وأرقام ، قد ترسم لنا صورة عن أموال بعض الأغنياء عند ظهور الإسلام . فقد ورد في كتب السير والتواريخ مثلاً أن الرسول استسلف من (عبدالله بن أبي ربيعة) أربعين ألف درهم ، فأعطاه . واستقرض من (صفوان بن أمية) خمسين ألف درهم فأقرضه . واستقرض من (حويطب بن عبد العُزى) أربعين ألف درهم . فكانت ثلاثين ومائة ألف قسمها بين أهل الضعف ، فأصاب الرجل خمسين درهماً وأقل وأكثر ، وبعث من ذلك الى بني جذيمة[2] .

وورد أن (المطلب بن أبي وداعة) ، فدى أباه يوم بدر بأربعة آلاف درهم[3] . وهو مبلغ يمكن أن يتحدث عمّا كان لدى آل (أبي وداعة) من مال .

واستعان الأغنياء بخزنة يخزنون لهم أموالهم ، ويكتبون لهم حساباتهم ، فكان لـ (طلحة بن عبيد الله) خازن ، يحفظ له ماله ، ويشرف على أملاكه ونخله وزروعه[4] . والخازن ، هو الذي يحافظ على المال وخزنه ، والخزانة مكان الخزن[5] . وقد كانت الخزائن معروفة عند الجاهليين ، وقد أشير اليها في مواضع من القرآن الكريم[6] . وكان (بلال المؤذن) خازناً لأبي بكر ، ثم صار خازناً للرسول ،

---

١ الاصابة (٣/٣٩٢) ، (رقم ٧٩٥٨) .
٢ امتاع الاسماع (١/٣٩٥) .
٣ كتاب نسب قريش (٤٠٦) .
٤ ارشاد الساري (٤/٧٩) .
٥ تاج العروس (٩/١٩١) .
٦ غافر ، الاية ، ٤٩ ، الزمر ، الاية ٧١ ، ٧٣ ، الملك ، الاية ٨ ، الانعام ، الاية ٥٠ ، هود ، الاية ٢١ ، الاسراء ، الاية ١٠٠ ، يوسف ، الاية ٥٥ ، ص ، الاية ٩ ، الطور ، الاية ٣٧ ، المنافقون ، الاية ٧ ، الحجر ، الاية ٢١ .

لما أعتقه (أبو بكر) ، يقوم بحفظ ما يأتي الى الرسول من بيت المال ، ويعطي منه من يأمره باعطائه منه[1] .

واتخذوا لهم محاسبين يحسبون لهم حسابهم ، وتجار لهم قوافل ولهم شركات مساهمة ، يساهم فيها كل من أراد من أهل مكة ، كان لا بد لهم من استخدام المحاسبين ، لحساب رؤوس أموالهم ومصاريفهم وتقدير أرباحهم وخسائرهم . وقد « استعمل الرسول رجلاً من الأسد على صدقات (بني سليم) ، يدعى (ابن اللتيبة) ، فلما جاء حاسبه ، فقد صح ان رسول الله حاسب . وبكتاب الحساب تحفظ الأموال »[2] . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال آخرين عيّنهم الرسول لأخذ صدقات المسلمين ومحاسبتهم عليها .

وقد استغل أهل مكة (الطائف) ، فكانت لقريش أموال بها يأتونها من مكة فيصلحونها ، فلما فتحت مكة وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها ، حتى اذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المكيين . وصارت الطائف مخلافاً من مخاليف مكة . وممن كان له مال بالطائف (العباس بن عبد المطلب) ، كانت له بها أرض ، بها كروم ، فكان الزبيب يحمل منها فينبذ في السقاية للحجاج[3] .

والتجارة من أهم موارد الثراء عند الجاهليين ، وقد كان أكثر أغنياء مكة تجاراً . وأهم ما يمتاز به ثراء التاجر عن ثراء غيره من الأغنياء ، هو أن ثراءه ثراء نقود ، وتعامله بالدنانير والدراهم في الغالب ، وأن ما يبيعه ويشتريه هو من منتوج ومحصول غيره ، فهو وسيط ، يكسب ربحه من البيع والشراء ، أي من فرق السعر الذي يكون بين سعر شرائه وسعر بيعه ، وقد يخسر بالطبع . أما ثراء الأغنياء المزارعين ، فمن بيع حاصلهم ، ويزيد كسبهم كلما ارتفع سعر البيع ، فتزيد به ثروتهم وتتوسع أرضهم . وأما ثراء سادة القبائل ، فمن المال ، أي الإبل ، ومن الجباية والتعامل مع التجار ومن الجهود الشخصية التي يبذلونها في الحصول على المال ، مثل حفر الآبار واستنباط الماء في الأرض الموات وغير ذلك .

ومن وسائل الثراء العثور على (الرِّكاز)[4] ، دفين أهل الجاهلية ، أي الكنز

---

١ الاستيعاب (١/١٤٥ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة ، (١/١٦٩) ، (رقم ٧٣٦) .
٢ نهاية الارب (٨/١٩٢) .
٣ البلاذري ، فتوح (٦٨) .
٤ الركاز ككتاب .

الجاهلي ، والمال العادي يوجد مدفوناً . و (الركزة) واحدة الركاز ، القطعة من جواهر الأرض المركوزة فيها ، وقطع عظام مثل الجلاميد من الذهب والفضة تخرج من الأرض أو سن المعدن . وأدخل بعض العلماء المعادن في الركاز . وخصص أهل الحجاز الركاز بالمال المدفون خاصة مما كنزه بنو آدم قبل الاسلام ، وأما المعادن ، فليست بركاز[1] . وعرف الركاز بـ (السيوب) . وذكر أن السيوب المعادن ، وذكر أنها عروق من الذهب والفضة تسيب في المعدن ، أي تتكون فيه وتظهر ، سميت سيوباً لانسيابها في الأرض . وذكر أنها المال المدفون في الجاهلية أو المعدن . وقد وردت اللفظة في كتاب الرسول لـ (وائل بن حجر) . إذ ورد « وفي السيوب الخمس »[2] .

وقد اعتبر الجاهليون (الركاز) ، مالاً يأخذه من يعثر عليه ، ونصيباً حلالاً ، حكمه حكم اللقطة التي لا صاحب لها ، أما الاسلام ، فقد فرض الخُمس في الركاز . وإنما كان فيه الخمس لكثرة نفعه وسهولة أخذه . فما استخرج من الركاز ، فلمستخرجه أربعة أخماس ولبيت المال الخمس[3] .

ونجد السور المكية الأولى من سور القرآن ، تصور أغنياء قريش ، أناساً متغطرسين غلاظ الأكباد يرون أنفسهم فوق الناس ، لغناهم ولمكانتهم بسبب ذلك في قولهم ، وكان ضعف حال الرسول بالنسبة لهم ، وصغر سنه من أهم العوامل التي دفعت أولئك السادة على مقاومته ومقاومة ما جاء به ، خاصة في دعوته انصاف الفقير وإخراج حق الله المكتوب للفقراء من أموالهم صدقة وزكاة ، تزكية لأموالهم ، وإسعافاً لفقرائهم ، قال أبو لهب للرسول : « ماذا أعطى يا محمد إن آمنت بك؟ قال : كما يعطى المسلمون ! فقال : ما لي عليهم من فضل . قال : وأي شيء تبتغي ؟ قال : تباً لهذا من دين ، تباً أن أكون أنا وهؤلاء سواء »[4] .

ويصورهم القرآن الكريم قوماً ألهاهم التكاثر والتفاخر ، تفاخروا بأموالهم وبوجاهتهم في قومهم ، بل تفاخروا حتى بمن توفي منهم من سادتهم[5] . لا يرحمون

---

١ تاج العروس (٤/٣٩) ، (ركز) .
٢ تاج العروس (١/٣٠٥) ، (سيب) .
٣ تاج العروس (٤/٣٩) ، (ركز) .
٤ تفسير الطبري (٣٠/٢١٧) .
٥ سورة التكاثر ، الرقم ١٠٢ .

فقيراً ، ولا يعطفون على يتيم ، بل كانوا يأكلون أموال اليتامى ، ويقهرونهم ، ولا يعطونهم حقوقهم[1] ، اذا جاءهم سائل انتهروه ، وطردوه طرداً قبيحاً ، واذا طلب محروم منهم عوناً أبعدوه عنهم . واذا وزن بائعهم أنقص في الميزان ، واذا كال قصر في الكيل : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم »[2].

ونجد هذه الصور البشعة المعبرة عن جشع بعض الأغنياء في كتب السير والحديث والأخبار أيضاً ، اذ صورت بعضها بعضهم وقد اعتدى على أموال رجل غريب جاء يتاجر بمكة ، فتلقاه تاجر من تجارها ، عامله على سلعة له ، ثم بايعه ، فلما قبضها ماطله الثمن، ثم أكله . هذا (أبو جهل) ابتاع إبلاً لرجل من (اراش) (اراشة) بمكة ، فمطله بأثمانها ، فأقبل (الاراشي) حتى وقف على نادٍ من قريش ، ورسول الله في ناحية من المسجد جالس . فقال : يا معشر قريش من رجل يؤديني على أبي الحكم بن هشام ، فإني رجل غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي . فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس ، يشيرون الى رسول الله ، وهم يهزأون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة ، اذهب اليه فإنه يؤديك عليه . فذهب به الى أبي جهل ، وأخذ منه حقه ، وأعاده عليه[3] . وهذا رجل من (زبيد) قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه (العاصي بن وائل) ، وكان ذا قدر بمكة وشرف فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف ، فأبوا أن يعينوه على (العاصي بن وائل) وزبروه . فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قبيس وقريش في أنديتهم ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

---

١ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ١٥٢ ، الاسراء ، الرقم ١٧ ، الاية ٣٤ ، الفجر ، الرقم ٨٩ ، الاية ١٧ ، الضحى ، الرقم ٩٣ ، الاية ٩ ، ومواضع أخرى ، المعجم المفهرس (٧٧٠) .

٢ الرحمن ، الاية ٩ ، المطففين ، الاية ١ وما بعدها ، تفسير الطبري (٣٠/٥٧ وما بعدها) ، تفسير النيسابوري (٣٠/٤٤) ، (حاشية على تفسير الطبري) .

٣ ابن هشام ، سيرة (١/٢٣٧ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .

فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبدالله بن جدعان ، وتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه . وعرف حلفهم هذا بحلف الفضول ، ثم مشوا الى (العاصي بن وائل) ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه[1] . فكان حلف الفضول نتيجة لما كان يقع بمكة من اعتداء على حقوق وأموال الغرباء والمستضعفين من الناس .

وذكر ان منهم من كان يأكل أجر العامل الأجير ، ومنهم من كان يشتط على عبده ، فيشغله في أشغال صعبة ، ثم يطلب منه أجره ، وقد يستقل أجره فيضربه ليحمله على ان يشتغل له أكثر من شغله ، ليجيء اليه بمال زائد . ومنهم من كان يحمل إماءه على البغاء ليأخذ أجرهن ، كما أشير الى ذلك في القرآن الكريم . وكما أشرت الى ذلك في مواضع أخرى من هذا الكتاب. ومنهم من كان لا يبالي للحصول على المال بسلوك أي سبيل يؤدي اليه .

وهي صورة تعارض ما نقرأه في أخبار أهل الأخبار عن تعاطف أغنياء مكة مع فقرائهم ، وعن اخراجهم جزءاً من أموالهم لمساعدة البائس والفقير والصعلوك والغريب ، حتى صار الفقير عندهم كالكافي وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء الى غير ذلك من نعوت وأوصاف[2] ، وكما جاء في شعر ينسب الى (مطرود بن كعب الخزاعي)[3] . وما ذكروه عن الذادة الذين أخذوا على أنفسهم الذود عن الضعيف والمظلوم .

ونجد أناساً بين الأعراب كانوا يشعرون بما كان يعانيه الفقراء من شدة الفقر، ومن شدة ما أصاب بعضهم من إملاق ، ومن اضطرار بعضهم إلى وأد بناته من شدة الفقر ، كما أشير الى ذلك في القرآن الكريم ، وهذا مما حمل بعض أصحاب القلوب الرحيمة الشفيقة على ودى البنات، وحمل مؤونتهن وبذل الرعاية لهن حتى يكبرن فيتزوجن . وقد ذكر ان من هؤلاء الذين وهبوا الشعور بالمسؤولية الانسانية وبالشفقة والرحمة والحنان : (صعصعة بن ناجية بن عقال) ، فقد أحيا الموءودات فبعث الرسول وعنده مائة جارية وأربع جوار أخذهن من آبائهن لئلا يوأدن[4] .

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٩٠ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (١/٩٠ وما بعدها) .
٢ ثمار القلوب (١٠ وما بعدها) .
٣ الروض الانف (١/١١٧) .
٤ المحبر (١٤١) .

عادات وأعراف :

ويظهر من بعض الأخبار ان الوأد لم يكن عن إملاق حسب ، بل كان لسبب آخر ، أراه متصلاً بعقيدة ودين . فقد ذكر ان وفد (جعفى) ، قال لرسول الله : « يا رسول الله ! إن أمنا مُليكة بنت الحلو ، كانت تفك العاني وتطعم البائس وترحم المسكين ، وانها ماتت وقد وأدت بنيّة لها صغيرة فما حالها؟ قال : الوائدة والموءودة في النار »[1] . فلم يكن الوأد هنا بسبب الفقر والإملاق ، بل لسبب آخر ، قد تكون له صلة بدين أو بعرف اجتماعاً . ويلاحظ ان (جعفى) كانوا يحرمون القلب في الجاهلية ولا يأكلونه . ولما قدم وفدهم الى يثرب ، قال رسول الله : بلغني انكم لا تأكلون القلب ؟ قال : نعم . قال : فإنه لا يكمل اسلامكم إلا بأكله . ودعا له بقلب فشوي ، ثم ناوله أحد رجال الوفد، فلما أخذه أرعدت يداه ، فقال له رسول الله : كُله ، فأكله وقال :

على أني أكلت القلب كرهاً وترعد حين مسته بناني[2]

وقد حمل الأعشى على أولئك الذين ينامون وهم متخمون ملاء البطون،وجيرانهم جياع يتضورون من الجوع ، إذ يقول :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وفي هذا المعنى يقول بشر بن المغيرة :

وكلّهم قد نال شبعاً لبطنه وشبع الفتى لؤم اذا جاع صاحبه

ولعلّ هذا الشعور هو الذي حمل (عروة بن الورد) على أن يكون سيد الصعاليك ومجمعهم ومغيثهم ، حتى قيل له : (عروة الصعاليك) ، لأنه كان يجمع الصعاليك في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه[3] .

وفي القرآن الكريم أن (ملأ) نوح ، وهم الأعزة أصحاب الحول والطول،

---

١ ابن سعد ، الطبقات (١/٣٢٥) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٣٢٤ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٧/١٥٣) ، (صعلك) .

يقولون لنوح : « مـا نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الـذين هم أراذلنا »[1] ، وفيه أنهم قالوا لـه : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون »[2] . وقول ملأ نوح هذا ، هو تعبير عن رأي ملأ قريش الذين كانوا يقولون لو كان محمد رسولاً حقاً ، لكان رجلاً من رجال قريش أو الطائف الأغنياء أصحاب المال ، فالرئاسة ولو كانت نبوة لا تكون إلا في رجل عظيم : « وقالوا : لـولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[3].وكانوا يسخرون من المسلمين ويستهزئون بهم حينما يرونهم خلف الرسول ، يدخلون المسجـد الحرام ، وهم من الأراذل الضعفاء والفقراء ، فيضحكون ويقولون جـاءكم ملوك الأرض كسرى وهرقل ؟ فدين يكون اتباعه ومعتنقوه من الرقيق والضعفاء دين ليس له شأن ، ولا يمكن أن يكون مقبولاً حتى يكون أتباعه من الأغنياء ملأ القوم .

وقضى أغنياء مكة وسادتها لياليهم في مجالسهم ونواديهم ، وعادتهم أنهم كانوا يتنادمون ، يشربون ويسمعون القيان ، ويتنادرون ويسمعون القصص والنكـات ، ثم يعودون الى بيوتهم ، ونجد في كتب أهل الأخبار أسماء ندماء قريش .

وأكثر الأغنياء من التدهن ، فالتدهن من النعيم ، وهم يتدهنون بالدهون الجيدة المطيبة . ويقال لكثرة التدهن (التورن)[4] . و (التودن) ، كثرة التدهين والتنعيم[5].

وفي مقابل هذه الطبقة الغنيـة ، كان السواد فقيراً ، ومنهـم معدمون تماماً لا يملكون شيئاً ، اذا عجزوا عن الحصول على قوت ، عمدوا الى الشجر فأكلوا ورقه أو ثمره إن كان بريّاً لا يملكه أحد ، أو الى الأعشاب فأكلوها . ورد في حديث (عتبة بن غزوان) : ما لنا طعام إلا ورق البشام[6] . أو الى (العلهز) فأكلوه . وهو طعام من الدم والوبر كان يتخذ في أيام المجاعة ، وذلك أن يخلط الدم بأوبار الإبل ثم يشوى في النار ، قيل وكانوا يخلطون فيه القردان ، وذكر انه الصوف ينفش ويشرب بالدماء ويشوى ويؤكل . ورد في حديث (عكرمة) :

---

١ سورة هود ، الرقم ١١ ، الاية ٢٧ .
٣ سورة الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الاية ١١١ .
٣ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الاية ٣١ .
٤ تاج العروس (٩/٣٦٠) ، (التورن) .
٥ تاج العروس (٩/٣٦٠) ، (ودن) .
٦ تاج العروس (٨/٢٠٣) ، (بشم) .

كان طعام أهل الجاهلية العلهز[1] . أو الى (القرف) ، لحاء الشجر ، فأكلوة[2] . وأكلوا (الوزين) ، وهو الحنظل يؤكل باللبن أيام الحاجة[3] .

وقد كان الناس يصابون بالشدة والعسر ، ويعبر عن ذلك بـ (الحشر) : والحشر إجحاف السنة الشديدة بالمال . واذا أصابت الناس سنة شديدة فأجحفت بالمال وأهلكت ذوات الأربع قيل حشرتهم السنة ، بمعنى أصابهم الضرر والجهد[4] .

وفي العربية ألفاظ عديدة تعبر عن الشدة والضيق والفقر وضنك الحياة ، وسوء الحال ، من ذلك (القشف) والضعف والشظف ، وغير ذلك[5] . وفي كثرة هذه الألفاظ تعبير عن سوء الأحوال وعن تبرم الناس من الحياة ومن شدتها عليهم في ذلك الوقت ، حيث كانت حياتهم في عسر وضيق .

سرقة أموال الآلهة :

وقد ورد في نص من نصوص المسند ، وعيد بأن ينزل الإلـه رب السماء (ذ سموي) غضبه ولعناته وكل سوء ، وأن يلحق البؤس (يباس) بكل (نفس) إنسان لا يبالي بأوامر ذلك الإلـه ، فيسرق (ذ يسرقن) محرمه ، ويسرق من أموال محرمه (بقرم) بقراً ، أو غير ذلك كما أشير الى العقوبات التي ستنزل بذلك الإنسان المتطاول المخالف لأوامر الآلهة[6] . عقوبات العذاب (عذبن) تنزلها الآلهة على أولئك الأشخاص[7] .

ولهذا النص أهمية كبيرة بالنسبة الينا ، لأنه شاهد ناطق على أن الإنسان عند الحاجة وعند تصوره وجود منفعة وفائدة له لا يعبأ بسرقة آلهته وبالسطو على ما في معابدها من أموال وحلال ، وأنه لا يتردد من السطو على أوقاف تلك الآلهة

---

١ تاج العروس (٤/٦١) ، العلهز) .

٢ وان قرى قحطان قرف وعلهز فاقبح بهذا ويح نفسك من فعل

تاج العروس (٤/١٦) ، (العلهز) .

٣ تاج العروس (٩/٣٦١) ، (وزن) .

٤ تاج العروس (٣/١٤٢) ، (حشر) .

٥ تاج العروس (٦/٢٢١) ، (قشف) .

٦ REP. EPIGR. : 820.

٧ الفقرة السادسة من النص : REP. EPIGR. : 820.
Rhodokanakis, Stud. Lexi. II, S. 162.

وأخذ ما فيها . لا فرق في ذلك بين إنسان قديم ، كان للدين عليه وعلى مجتمعه نفوذ وسلطان، وبين مجتمع حديث تهذب فيه الانسان وارتفعت فيه مداركه ومزاياه فها نحن أمام جماعة سرقت معبد (محرم) لإلاهها (ذو سموي) رب السماء ، ولم تكتف بسرقة ذلك المعبد ، بل سرقت البقر في الأرض المحبوسة على ذلك الإلـه . ولهذا أمر رجـال ذلك المعبد الناطقين باسم ذلك الإلـه بكتابة ذلك النص ليقرأه الناس وليروا مـا فيه من لعنات ستنزل على من يتجاسر على مخالفة أوامر ذلك الإلـه ، فيسرق معبده ويسرق بقره .

ويلاحظ ان التشريع قد اعتبر القبيلة والجماعة وحدة اجتماعية مسؤولة أمام الإلـه عن كل ما اقترفه أفرادها من سرقات وآثـام . فإذا سرق أحدهم من معبده أو ألحق أضراراً بأملاكه ، صارت القبيلة مسؤولة قانوناً وكلها أمامه ، وعليها إنزال عقابها بالفاعل ، بالاضافة الى العقاب الذي يفرضه المعبد عليه . وبإيقاع المسؤولية على القبيلة كلها ، يكون المعبد قد أمن بذلك من غدر الأفراد المجهولين ، ومن تطاول السرّاق المتسترين على أموال المعابد والآلهة، ومتى وجدت القبيلة انها مسؤولة عن ذلك بالتضامن ، فإنها تكون حذرة وعيناً على السرّاق والمفسدين ، لا سيما اذا ما علمت ان الآلهة تغضب عليها فتصيبها بالكوارث، فتقلّ بذلك حوادث السرقات بالنسبة الى أموال المعابد والأوقاف .

ويجب أن نتذكر هنا القصة التي يرويها أهل الأخبار عن سرقة (كنز الكعبة) وذلك قبل بنيانها بقليل ، ووضع السراق ما سرقوه عند (دويك) مولى لبني (مليح ابن عمرو) من خزاعة ، وقطع أهل مكة يده لذلك . وما ذكره أيضاً من أن سارقاً سرق من مالها زمن جرهم ، فانتزع المال منه[1] .

كذلك يجب أن نتذكر ان سارقاً سرق من بيت (عائشة) شيئاً ، فدعت عليه، فقال لها النبي : « لا تسبخي عنه بدعائك عليه » ، أي لا تخففي عنه إثمه الذي استحقه بالسرقة بدعائك عليه[2] . سرق بيت رسول الله مـع انه مسلم مؤمن بالله وبرسوله، لم يردعه عن السرقة دينه ، وقد تكون الحاجة قد دفعته إلى تلك السرقة.

ووصلت الينا نصوص أخرى يفهم منها أن أشخاصاً استدانوا من أموال المعبد، فلم يؤدوها له ، وأن قوماً أكلوا حقوق الآلهة المفروضة عليهم من أعشار ونذور،

---

١ ابن هشام (١/١٣٠) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (١/١٣٠) .
٢ تاج العروس (٢/٢٦٠) ، (سبخ) .

وفي بعض منها إقرار من أصحابها بأنهم أكلوا حق الآلهة ، أو لم يتمكنوا من الوفاء بديونهم أو بنذورهم لها ، فهي تتوسل اليها بأن تغفر لأصحابها ما اقترفوه بسبب ذلك من إثم ، وأن تمن عليهم بالصحة والعافية . ويظهر أنهم أصيبوا بسوء ومرت بهم أوقات عصيبة ، جعلتهم ينسبون ما حلّ بهم الى فعل الآلهة ، والى غضبها عليهم بسبب أكلهم أموالها وحقوقها ، فكتبوا ما كتبوه يستغفرون ويتوبون، يرجون الصفح والعفو ، وقد وعد بعضهم بالوفاء بل ما أخذه ولوّاه .

دفن الذنوب :

ومن عادة العرب في الجاهلية ، أن أحداً منهم إذا جنى جناية ، أو نهب شيئاً أو أكل مالاً ، أو غش أحداً في تجارة ، أو أكلها بالباطل ، وأراد المجنى عليه العفو عمّا وقع ، فالتعويل في الصفح فيها على الدفن . وطريقتهم فيه أن تجتمع أكابر قبيلة الذي يَدْفن الذنب بحضور رجال يثق بهم المدفون له ، ويقوم منهم رجل ، فيقول للمجني عليه : نريد منك الدفن لفلان ، وهو مقر بما أهاجك عليه ، ويعدد ذنوبه التي أخذ بها ولا يبقي منها بقية ، ويقر الذي يدفن ذلك القائل على أن هذا جملة ما نقمه على المدفون له،ثم يحفر بيده حفيرة في الأرض، ويقول : قد ألقيت في هذه الحفيرة ذنوب فلان التي نقمتها عليه ، ودفنتها له دفني لهذه الحفيرة ، ثم يرد تراب الحفيرة اليها حتى يدفنها بيده . ولا يطمئن خاطر المذنب منهم إلا به ، إلا أنه لم تجر للعرب فيه عادة بكتابة ، بل يكتفي بذلك الفعل بمحضر كبار الفريقين ، ثم لو كانت دماء أو قتلى عفيت وعفيت بها آثار الطلائب[1] .

---

١ صبح الاعشى (١٣/٢٥٢) .